الدكتور / عوض بن حمد القوزي

رؤية مستقبلية في تدريس اللغة العربية

١

بسم الله الرحمن الرحيم

رؤية مستقبلية في تدريس اللغة العربية

هذه الورقة تحاول الدخول إلى المضمون دون مقدمات أدبية ، فقد قيل الكثير عن معاناة الطلاب في تحصيل القدر الضروري من علوم العربية بما يقيم اللسان والقلم ، كما قد قيل ما قيل عن الشكوى من صعوبة هذا العلم ، وعلى الأخص النحو والصرف ، تلك الشكوى التي انطلقت منذ انطلاقة النّحو كعلم له أسسه وقواعده ونظرياته ، وتبرم الناس منه ومن أصحابه ، حتى إنهم وصفوهم بالثقل في المجالس .

ومن خلال استقراء الماضي وبالأخص تاريخ علم العربية نرى جهود العلماء ترصد معوقات التعلّم التي تواجه متعلمي العربية ، وتلتمس علاجها في حينه ، فالنحو نفسه أول ما ظهر ، لم يكن إلا ليعالج اللحن الذي أصاب الألسنة في قراءة القرآن الكريم ، ولما كانت المشكلة محدَّدة ، فإن علاجها الذي ظهر على يد أبي الأسود كان محدّداً ، ومحصوراً في التغلب على اللحن ، وعدم السماح بوقوعه في قراءة القرآن ، فأعرب القرآن بالنقط ، دون أن يفكر فيما نعرفه اليوم من النحو والإعراب وعلوم العربية .

وعندما استجدت مشكلة التصحيف في قراءة القرآن ، لتشابه حروف الكتابة العربية في الشكل الظاهر ، اقتضى الأمر مواجهتها بما يناسبها ، فاهتدى تلاميذ أبي الأسود للتغلب عليها عن طريق غير طريق أبي الأسود ، ووضعوا لحلها " نقط الإعجام " . وأخذ علم العربية يتطور بسرعة مذهلة ويبرز علماء كبار في صدر القرن الهجري الثاني أمثال عبدالله بن أبي إسحاق (ت ١١٧هـ) وعيسى بن عمر (ت ١٤٩هـ) ، وأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) ، وتؤلف الكتب التي فقدناها بتقادم الزمان ، لكن حفظ لنا كتاب سيبويه مجموعة صالحة من آراء هؤلاء العلماء ، وهي صورة صادقة لثقافة عصرهم ، وهي بلا شك كانت ملبِّية لاحتياج طلاب العربية

في ذلك العصر ومن خلالها نلحظ بدء تشكل علم جديد اتخذ مادته من لسان العرب دراسة وتطبيقيًا ، وخرج من دائرة الاهتمام بألفاظ القرآن وحمايتها من اللحن والتصحيف إلى لغة العرب نفسها ، فهي وعاء الثقافة العربية ، فأهتم بها شعراً ونثراً ، وأخضعها للدراسة والاستقراء وبدأت المصطلحات النحوية تظهر من ثنايا الاستعمال العلمي واتجهت نحو الانفصال عن المعنى اللغوي الذي تحمله ، فلم يعد الجرّ يعني السّحب ، ولا الهمز بمعنى العصر بشدّة على السلاح أو نحوه ، ولا المصدر يعني مورد الماء ، ولا الفاعل يعني من يقوم بالفعل ضرورة ، وبعبارة أخرى أخذ كثير من الألفاظ يشيع استعماله في العلم الجديد بعيداً عن الاستعمال اللغوي القائم في أذهان العامة .

ثم لم نلبث أن رأينا رجالاً يَقفون أنفسهم على هذا العلم درسًا وتمحيصًا فيظهر الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) وتلميذه سيبويه (ت ١٨٠هـ) حيث كاد النحو يستقر على يديهما ، بل إن الناظر في هذا العلم ليشك أن يكون قد شذّ عن سيبويه شيء من فنونه .

ثم لما تلقف طلاب العربية هذا الكتاب وجدوا بعضه عويصًا على الأفهام ، فكان لا بدّ من البحث عن وسيلة لتبسيطه وتقريبه من الفهوم ، فتتابعت جهود العلماء في ذلك ، ومع تنامي الاهتمام بهذا العلم أخذ يتجه نحو التعقيد لإغراق علمائه في البحث عن علل الأحكام وفلسفتها ، وعدم الوقوف عند ظاهر اللغة ، بل إن العلل الأوائل لم يعد كشفها يبل صداً ، اتجه الدارسون للكشف عن العلل الثواني والثوالث ، الأمر الذي جعل الصديان يتوقف عجزاً أمام أبواب النحو الموصدة ، فازدادت بذلك الرغبة في تيسيره وتذليل صعوباته ، فظهرت مشكورة كتلك التي نراها عند الزجاج (ت ٣١١هـ) والسيرافي (ت ٣٦٨هـ) والفارسي (ت ٣٧٧هـ) ثم الزبيدي (٣٧٩هـ) وغيرهم .

ثم لما بعدت الشقة ومطل الزمان بطلاب العربية ، ضعفت هممهم في تحصيل علومها ، واقتحام صعوباتها ، حتى إنهم باتوا يتسصعبون المختصرات ، كالمفصل

والإيضاح والجمل ، وأخذوا يبتعدون عن الدراسة النحوية ، الأمر الذي دفع مثل ابن معطي (ت ٦٢٨هـ) وابن مالك (ت ٦٧٢هـ) إلى تغيير الأسلوب في تقديم هذا العلم ، إذ اهتدوا إلى نظم أحكامه شعراً لسهولة حفظ الشعر ، وتقبل النفوس له خلواً من الخلافات والتعليل ، فسهل عليهم استظهار تلك المتون ، وأخذ المنهج الجديد في التأليف يحل محل الكتب الأولى ، إلا أنه لما كانت تلك المتون بحاجة إلى تفسير وتوضيح هُرع المختصون إلى شرحها ، وضرب الأمثلة لما أجمل فيها ، فسهلت ألفاظها ، واستساغها المريدون فشاعت في الشرق والغرب ، وتلقفتها الأيدي حتى عصرنا الحاضر ، إلا أن أجيالنا المعاصرة التي بعدت بها الأزمان عن لغة الكتابة في العصور الأولى والوسيطة ، أصبحوا يستصعبون أسلوب ابن عقيل وابن يعيش والسيوطي والأشموني فما بالك بأسلوب سيبويه والمبرد وابن السراج وتلاميذهم ؟! لقد لحظ المربون قدرات الطلاب ، وعجزهم عن تقبل الدراسة بالأساليب التقليدية في المصادر القديمة ، فظهرت صيحات تنادي بتبسيط النحو ، وتخليصه مما علق به من علل ومماحكات فلسفية ، وتجريده من كل ما يعيق الفهم المباشر للغة العرب ، والاكتفاء بما يؤهل الطالب لإقامة لسانه وقلمه ، وفي الوقت نفسه ظهرت نداءات مغرضه صاحبت الغزو الاستعماري للبلاد العربية ، فكانت دعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى وأخرى لترك الإعراب والاكتفاء بالتسكين عند أواخر الكلمات ، وثالثة لإحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي لقدرته على مسايرة العصر والاستجابة لمتطلب العلوم الحديثة .

وتتزامن صيحات الخير ونعيق الشر والضلال ، فتضيع خطوات الإصلاح بعد محاولات جيدة تمثلت فيما ظهر من مؤلفات عصرية مثل سلسلة كتاب " قواعد اللغة العربية " لحفني ناصف ، وسلسلة كتاب " النحو الواضح " لعلي الجارم وقد آتت ثمارها بالرغم من قصر المدة الزمنية لتطبيقها ، إلا أن تأثر الفكر العام بما ألقي في روع الأمة من خوف على لغتها جعل تلك الجهود تتضاءل ، وترمى بالقصور عن تحقيق الهدف التعليمي والتربوي لناشئة الأمة ، وتعود الحال في البحث عن الجديد المفيد الذي لا يشذ

عن السنن المطروق في تراث هذه اللغة [انظر : القوزي ، عوض : تبسيط استخدام اللغة العربية - الضعف اللغوي والعلاج - بحث مقدم إلى المؤتمر الرابع لجمعية لسان العرب بالقاهرة ، نوفمبر ، ١٩٩٧م ، ص ١٢ فما بعدها] ، حتى إذا أطلّ الربع الأخير من القرن العشرين رأينا الدعوة إلى التيسير تبعث من جديد على يد الدكتور شوقي ضيف ، ويتبنى مجمع اللغة العربية بالقاهرة مشروعه فيستقر المشروع في هيئة كتاب توخى المؤلف تخليص المؤلفات النحوية التيّ تدرس لناشئة الأمة من كل ما يشوش عليها ، ويضعف تحصيلها فرسم لتجديد النحو أسسًا قامت على :

١ - تنسيق أبواب النحو .

٢ - إلغاء الإعرابين : التقديري والمحلي .

٣ - والنظر إلى أن قيمة الإعراب تتمثل في صحة النطق .

٤ - وضع ضوابط وتعريفات دقيقة لبعض أبواب النحو .

٥ - حذف بعض الزوائد التي تعقد أبواب النحو ، وتدخل على تمثلها شيئًا من العسر دون حاجة حقيقة إلى ذلك .

٦ - إضافة بعض الحقائق لتوضيح الصياغة العربية في نفس دارس النحو .

[انظر : شوقي ضيف ، تجديد النحو ، ص ٤٣] .

ومع منطقية ما ذهب إليه هذا المشروع ، إلا أنه لم ولن يسلم له بكل ما أراد لهذا المشروع ، وسواء وافقناه الرأي أو خالفناه إلا أنه لم يقدم حتى الآن مشروع لتيسير تعلم العربية يجمع أهل الشأن عليه .

الواقع أن الإجماع على أمر في هذا الموضوع مطلب صعبٌ مثله مثل صعوبة إجماع هل البلدين (البصرة والكوفة) على بعض الأحكام النحوية ، وما ذلك إلا لأن هذا العلم " منتزع من استقراء هذه اللغة ، فكل من فُرق له عن علة صحيحة ، وطرق نهجة ، كان خليل نفسه ، وأبا عمرو فكره " [الخصائص ، ج١ ، ص ١٨٩ - ١٩٠].

الذي يستطيع المرء أن يقرره باطمئنان هو ارتفاع الشكوى عدم ملاءمة مناهج اللغة العربية القائمة لاستعدادات الطلاب وقدراتهم ، وأنها بحاجة إلى إعادة النظر

لتخليصها من بعض الموضوعات التي لا تفيد إلا تشويشًا وبلبلة لأذهان الطلاب ، فضلاً عن أن تعلمها لا يضيف إلى الرصيد العلمي للطلاب شيئًا ذا قيمة كما أن إهمالها لا يعرضهم لكبير خسارة إذا ما علمنا أن هدف تعلم هذا الفن هو إكساب المتعلم القدرة على بناء الكلمة السليمة صرفًا وإعرابًا وتركيبًا سواء في المكتوب أو في المنطوق ، والوصول إلى هذا الهدف لا يتحقق بيسر وسهولة إلا إذا وقفنا من مناهجنا القائمة الوقفة التالية : [انظر : السيد : عبدالرحمن ، النحو العربي بين التطوير والتيسير ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء السبعون ، القعدة ، ١٤١٢هـ ، مايو ١٩٩٢م ، ص ٢٣٦ - ٢٤١] :

أولاً : تخليصها من الأمثلة الآحاد أو النادرة التي كان يأخذ بها بعض النحاة الأولين الذين كانوا يعتدون بالبيت الواحد أو بشطر بيت قد لا يعرف قائله ، فيرتبون عليه قاعدة لا تخلو من الشذوذ والضعف ، والعودة إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الصحيح ثم الشعر الذي وثقه الرواة ، والخطب والوصايا الثابتة عن صدر هذه الأمة .

ثانيًا : البعد عن المصطلحات التي تدخل في العلوم الأخرى كمصطلحات المتكلمين ، والاهتمام بالمصطلحات النحوية المباشرة البعيدة عن الفلسفة المنطقية وعدم الإغراق في متاهات العلة النحوية التي غالبًا ما تخرج بالنحو إلى الحدس والتخمين ، ثم إلى نهج عقلي بعيد عن انتحاء سمت العرب في لغتها وبلاغتها .

ثالثًا : إن احتفاء النحاة بالعامل وتفرقهم فيه شيعًا أدى ببعضهم إلى المطالبة بإلغاء نظرية العامل ، وتخليص النحو منها ، فلو نظر للعامل النحوي على أنه إنما قصد به التقريب والتيسير على الدراسين للربط بين الألفاظ وإظهار علاقة بعضها ببعض وأن ما يترتب على هذا الربط من ضبط خاص بهذه الألفاظ هو موضع النظر لواضعي اللغة نفسها ، لو نظر إليه من هذه الزاوية لانتفى الخصام

حول تشخيصه ومعاملته معاملة الحقيقة ، ولما قامت الخصومات فيه وفي أقسامه [انظر : ابن مضاء القرطبي ، الردّ على النحاة ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م ، ص ٧٦ وما بعدها] .

رابعًا : التخفيف من قضايا الإعراب التقديري وعدم إثقال المناهج بالخلاف فيما أعرب أهو معرب بالحروف أم معرب بالحركات ، والحروف ناشئة من إشباع الحركات ، أم أن هذه الحروف دلائل إعراب ، أم أن انقلابها هو الإعراب ، وما إذا كانت هذه الألفاظ معربة من مكان أو هي معربة من مكانين أو نحو ذلك .

خامسًا : عدم إثقال المناهج بمسائل البحث في كنه بعض الألفاظ وما إذا كانت مركبة أو بسيطة ، وتنحية هذه الأمور إلى حيث يجب أن تكون .

سادسًا : الابتعاد عن المسائل والتمرينات غير العملية والصيغ الافتراضية التي لم تتكلم بها العرب ولم تعرفها لغتهم ، وتخليص المناهج من كل ما يلبس على المتعلم أو يزرع الشك في لغته ، ومعارفه .

سابعًا : تدرس كثير من مسائل النحو على أسس التقديم والتأخير ومتى يكون ذلك جائزاً وواجبًا ، فضلاً عما أولعوا به من التقدير والحذف . ولكي نيسر للدارسين تعلم العربية كان علينا التخفف من عوامل التصعيب والتعقيد التي يعاني منها طلاب العربية في هذه المباحث .

ثامنًا : مراعاة المرحلة العمرية للطالب ، بالإضافة إلى تقدير احتياجه من علم النحو ، فما يحتاجه طفل المرحلة الابتدائية من هذا العلم غير القدر الذي يمكن أن نقدمه لطالب المرحلة المتوسطة أو الثانوية ، وما يقدم للطالب الجامعي يختلف عما يقدم لغيره ، ثم ما يحتاجه غير المتخصص في علوم العربية لا يتجاوز المقدار الذي يحقق له إقامة لسانه بالكلمة المعربة الصحيحة ، وقلمه باللفظ المستقيم رسمًا وبناء وإعرابًا ، وهو غير ما يتطلبه الطالب المتخصص

في علوم العربية من إلمام بخلافات النحاة ومذاهبهم وعللهم بالإضافة إلى اكتناه أسرار هذا العلم ورجاله ومعرفة أصوله ومدارسه والعلوم اللصيقة به .

وباختصار أن يراعى حال كل فئة عند وضع المناهج لئلا نحمل غير المتخصص عبئًا ثقيلاً لا يتفق وقدراته ، كما لا نقدم للطالب المتخصص منهجًا أقل من تطلعاته ودون احتياجاته ، وحسبنا أن نشبه الطالب والمعلم بالمريض وطبيبه ، فما لم يستطع الطبيب تشخيص مرضه فإن علاجه لن يكون مفيداً ، وإذا زادت جرعة الدواء أو نقصت عن الحاجة فإن الدواء لن يكون مفيداً أيضًا .

تاسعًا : أن تدرس علوم العربية في إطار مجموع ، فلا يُدرس النحو بمعزل عن الأدب ، ولا الصرف بمعزل عن بقية العلوم العربية وأن يكون المعلم ملمًا بعلوم العربية ، فيتوجه بالطالب نحوالنص ليستخرج منه الصور البلاغية ، والقضايا النحوية ، والصرفية ، والصوتية ، وأن يمثل النص حقل تجارب للمعلم ، ينتج النحو والصرف وفقه اللغة ، والأصوات ، وعلوم البلاغة ، والنقد ، والعروض وذلك بالابتعاد عن التخصص العقيم الذي يجعل الأستاذ لا يعلم كثيراً مما يجب العلم به بحجة التخصص ، ناهيك عن جهله أحيانًا بأمور تدخل في التخصص الذي يدعيه .

إننا إذا نظرنا إلى علوم العربية كوحدة واحدة دون تجزئة استطعنا أن نكسر حاجز الخوف عند المتلقين الذي إذا ذكر النحو والصرف اشمأزت جلودهم ، ثم إن استظهار القاعدة النحوية ينبغي ألا يقوم على حساب فهم تطبيقها ، فلو استطاع المتعلم تمييز أحكام الحال عمليًا فإن ذلك يغنيه عن استظهارها دون وعي أو تطبيق .

إن المحاضر أو المعلم الذي يحرص على إفادة طلابه أكبر قدر من المعرفة هو ذلك الذي يلبي رغباتهم مهما اختلفت مشاربهم وتخصصاتهم ولن يصل إلى

هذا المستوى إلا إذا رأيناه يضرب في فنون العربية بحكمة وعمق ، ورأيناه يستكنه النص فيستخرج منه صوره الجميلة وأخيلته البديعة ، ويظهر ما شاع فيه من جناس أو طباق أو استعارة أو تشبيه ، ثم يعرضه على محك النقد فيظهر ما فيه من جمال أو عيب ، ويدرسه صوتيًا فيعرف ما في حروفه من توافق أو تنافر ، وما في جمله من حسن إيقاع أو قبحه ، ثم ما في الشعر من قوة أو ضعف ، وما في بحوره من زحافات وعيوب ، ثم ما في بُنىٰ كلمه من موافقة لبنىٰ الكلم العربي أو مخالفة ، وما في بعض الألفاظ من زيادة أو حذف ، ثم ما في بعض ألفاظه من وجوه الإعراب الممكنة ... إلى غير ذلك .

إن هذه الطريقة تفيد من جهتين :

الأولى : إبعاد الملل عن المتعلمين ، وإزالة الرتابة التي تولد السأم لديهم ، فهي تنقلهم من فن إلى آخر كالنحلة وهي تنتقل من زهرة إلى أخرى .

الثانية : الربط بين علوم العربية في إطار تكاملي بعيد عن التعقيد وعقم التلقين ، يضاف إلى ذلك الاهتمام بثقافة المتعلم وتنميتها في جو لا يفرض عليه ما يسمى بالخروج عن الموضوع إلى غيره ، فمعلم العربية إن جاوز النحو إلى الصرف أو إلى البلاغة أو النقد ، فإنما مثله كمن يتجول في ردهات المنزل الواحد ، ولا يقبع في إحدى زوايا المنزل لا يبرحها .

عاشراً : ونحن في زمن الثورة العلمية الحديثة ، وثورة التقنية الجديدة يجب أن نستفيد من معطياتها ، وألا نعيش محرومين من معايشتها ، فكان لزامًا علينا أن نخضع أنفسنا ومناهجنا لمسايرة الركب لا أن نتفرج على الآخرين ونحن خارج الدائرة ، فنحن جزء من هذا العالم وينبغي أن نعيشه بكل معطياته ، وألا تمرّ دون أن نحقق الإفادة منها .

لقد أمكن التعلم عن طريق الحاسوب بوسائل متطورة ومفيدة ، وينبغي أن

تخضع هذه التقنية - وهي مطاوعة - لخدمة العربية وعلومها .

حادي عشر : إفساح المجال أمام الوسائل المعينة خاصة في المراحل التعليمية الأولى . وعدم تقديم هذه العلوم مجردة ، فاستخدام أكبر قدر ممكن من الحواس في عملية التعلم أجدى وأنفع من تلك التي تقوم على حاسة واحدة كالسمع مثلاً ، لقد تطورت وسائل الإيضاح بتطور وسائل التعلم وتقدم التقنية العلمية ، وشاع التعلم بطريق اللعب ، فكان على المهتمين بعلوم العربية إنتهاج كل طريق ييسر عويصها للفهم ، ويدنيها من متعلميها ، ويحببها إليهم .

ثاني عشر : الاهتمام باختيار النصوص التي نقدمها للناشئة فالنصوص التي يقع عليها الاختيار ينبغي أن تراعى فيها تلبية الحاجة اللغوية الأدبية والإفادة الثقافية في أسلوب واضح بعيد عن التعقيد والتقعر والغرابة والإلغاز ، فالتراث العربي مليء بالقيم والمعاني النبيلة ، والاختيار الواعي يحقق للمتعلم هدفين :

الأول : المعرفة العلمية المتوخاة .

الثاني : ربطه بتراث الأمة ، وتلبية الحاجة النفسية للفرد بالانتماء إلى ذلك التراث .

ثالث عشر : الاستفادة من مناهج تعلم اللغات الأخرى ، فنحن نرفض أن يمارس معلم اللغة الانجليزية مثلاً اللغة العربية كما نلح عليه ألا يسمح للطلاب في الفصل الدارسي باستخدام لغة غير الانجليزية ، وقد أدت هذه الوسيلة ثمارها على قدر يتفاوت بين المجتمعات العربية ، ومن عجب أننا نستطيع أن نحمي الانجليزية من تأثير العربية ، لكنا لا نتحمس لحماية العربية نفسها من العاميات التي تثقل كاهل المعلم والمتعلم ، وتبطّئ بالاستفادة في فهم العربية الفصيحة ، فالمدرس ينحو في الحديث إلى لهجته الخاصة ، والطالب ينطلق بالسليقة المتشبعة باللهجة التي لقفها من المنزل والمجتمع ، وهما معًا يزعمان أنهما يمارسان اللغة العربية .

إن التزام الأستاذ بالقدر الضروري من العربية الفصيحة ، وإلزام طلابه بذلك مطلب ليس صعب المنال ، وهو في الوقت نفسه يجعل تعلم العربية خاضعًا للتطبيق والممارسة ، وليس في مجال التنظير وحسب .

رابع عشر : ولما للإعلام بوسائله المتنوعة من تأثير على المتلقين ، كان عليه احترام هذه اللغة وثقافتها وعدم امتهان فكر أصحابها ، ويتمثل احترامه للغة في التمسك بها ، وممارسة أساليبها السليمة ، والبعد عن كل ما يؤثر عليها أو يشوش على متعلميها ، فإذا التزم الإعلام العربية ولتكن العربية الميسرة البعيدة عن التقعر والتعقيد فإن مستمع الراديو أو مشاهد التلفاز أو قارئ الصحيفة سيتأثرون بما تقدمه هذه الوسائل من ثقافة ، وستكون خير مساعد لتعلم اللغة العربية ، مع اهتمام المجتمع بالتزام العربية الفصيحة في الإعلانات الميدانية أو أسماء المحلات التجارية أو الدعايات الأخرى ، وإلا كنا كمن يهدم في المساء ما بناه في النهار ، ولنا أن نتمثل قول الشاعر :

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟!

وليس تعلم العربية حكراً على أهلها ، فكثير من الشعوب الإسلامية لا تعرف العربية ، ويتوق أبناؤها لدراسة لغة القرآن والسنة النبوية المطهرة لارتباطهما بالعبادة وبالدين الذي يدينون به ، فالدول غير النطاقة بالعربية بها نسبة من المسلمين قد تقل أو تكثر ، وقد تصل نسبة المسلمين في بعض الشعوب ١٠٠٪ ، هؤلاء يرتلون القرآن ، لكنهم لا يفهمون معانيه ، وبعضهم يقرأ القرآن والسنة النبوية بالحرف العربي لكنه لا يدري ماذا يقرأ ، لذا ، فلا غرو أن يتجه هؤلاء لتعليم العربية لإدراك ما نزل به الوحي من جهة ، ومعرفة الشريعة الإسلامية من مصادرها من جهة أخرى .

وإذا كان هدف هؤلاء من تعلم العربية ظاهراً وواضحًا ، فإن لغيرهم من غير النطاقين بالعربية أهدافًا تدفعهم إلى إكتساب هذه اللغة ، فالبلاد العربية بما أفاء الله عليها من خيراته وما منحها من تنوع المناخ والتضاريس فضلاً عن توسطها الجغرافي بين قارات العالم القديم ، أصبحت محطّ اهتمام الشعوب ، ومهوى الأفئدة لا للمسلمين

وحدهم ، بل لكل الشعوب بمن فيهم أصحاب الديانات الأخرى ، والمصالح الاقتصادية .

إن اللغة العربية لم تعد تهم المسلمين وحدهم ، بل شملت أهميتها فئات المجتمعات الأخرى فقد أصبحت تهم المثقف والباحث عن الثراء التاريخي والأدبي ، والتاجر الذي يؤسس لنشاطه التجاري قاعدة عريضة في السوق التجاري العربي ، والدبلوماسي الذي يتطلع لتنمية علاقة بلاده ببلاد العرب وشعوبها ، ومن أجل ذلك وغيره ، اتجهت الأنظار لتعلم اللغة العربية ، ولا أدل على اهتمام الشعوب بهذه بالعربية من إفساح المجال أمام الجامعات العريقة لفتح أقسام متخصصة لدراسة العربية ضمن أقسام اللغات الشرقية بها ، فالجامعات البريطانية مثلاً وبالأخص تلك الجامعات العريقة مثل جامعة أوكسفورد ، وكيمبردج ، وجامعة لندن ، وإدنبرة ، ومانشستر وغيرها بها أقسام تمنح الدرجات العليا في هذه اللغة ، ومثل ذلك معروف في جامعات فرنسا ، وألمانيا ، والولايات المتحدة وغيرها .

إن اهتمام العالم بأسره بهذه اللغة جعل الجامعات العربية تفكر في تحمل عبء نشر هذه اللغة حتى المستعمرين منهم حثوا جنودهم على تعلم العربية لكي تكون وسيلتهم إلى معرفة الشعوب الأخرى ، فهذا المستشرق الفرنسي برنييه في معرض حثه الفرنسيين على تعلم اللغة العربية يقول : " إن اللغة العربية ليست وسيلة فرنسا للاتصال بعالم الأهالي (الجزائريين) فقط ، بل بالعالم العربي الإسلامي أجمع . وقال : إن معرفة اللغة العربية سيجعل العالم الأوروبي يربط علاقات بالشعوب الإسلامية ، وهي علاقات لا تكفي فيها الكتب ، بل لا بدّ من التعبير الشفوي أيضًا " [لويس برينييه (PREASNIER) ، الدروس العلمية والعظرية في اللغة العربية ، ١٩١٥م ، ص ٣ ، نقلاً عن بحث " المستشرقون الفرنسيون وتعليم اللغة العربية للأوروبيين في الجزائر " (١٨٣٠م - ١٩١٤م) للدكتور أبوالقاسم سعد الله ، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الجزء الرابع والستون ، رمضان ، ١٤٠٩هـ / مايو ١٩٨٩م ، ص ١٧٢] ، لقد أسهمت المؤسسات التعليمية في الوطن العربي في هذا

المجال بأن أتاحت الفرصة لدراسة العربية في بيئتها العربية ويسرت لشداة العربية سبيل تعلمها وأخذت تنشيء المعاهد المتخصصة لتدريس العربية لغير الناطقين بها ، واقتضى هذا تهيئة المناخ المناسب لتعليمهم ، فكما أن مكان الدراسة المريح مطلب أساسي ، فإن إعداد المعلم المتخصص في تدريس العربية كلغة ثانية يبدو أكثر أهمية وإلحاحًا ، فواجهت معاهد تعليم اللغة العربية مطالب الوافدين بما يناسبها من الكفاءات البشرية المدربة من جهة ، وبالمقررات التي تلبي احتياجاتهم من جهة أخرى ، فضلاً عن تهيئة الجو التعليمي المناسب لهذه الفئة من الدراسين وانطلقت رسالة نشر العربية من الأهداف التالية : [انظر : رشدي طعيمة ، أسس تحليل وتقويم كتب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، سلطنة عمان ، مسقط ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م] :

١ - أن يمارس الطالب اللغة العربية بالطريقة التي يمارسها بها متحدثوا هذه اللغة أو بصورة تقرب من ذلك . وفي ضوء المهارات اللغوية الأربع [الاستماع ، الكلام ، القراءة ، الكتابة] ، يمكن القول بأن تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها يستهدف ما يلي :

أ - تنمية قدرة الطالب على فهم اللغة العربية عندما يستمع إليها .

ب - تنمية قدرة الطالب على النطق الصحيح للغة ، والتحدث مع الناطقين بالعربية حديثًا معبراً في المعنى ، سليمًا في الأداء .

ج - تنمية قدرة الطالب على قراءة الكتابات العربية بدقة وسرعة وفهم .

د - تنمية قدرة الطالب على الكتابة باللغة العربية بدقة وطلاقة ووضوح وجمال .

٢ - أن يتعرف الطالب خصائص اللغة العربية ، وما يميزها عن غيرها من اللغات أصواتًا ومفردات وتراكيب ومفاهيم .

٣ - أن يتعرف الطالب الثقافة الإسلامية العربية ، وأن يلم بخصائص الإنسان العربي الناطق بهذه اللغة ، وبالبيئة التي يعيش فيها وبالمجتمع الذي يتعامل معه .

وفي ضوء هذه الأهداف وغيرها قامت المعاهد المتخصصه في نشر العربية بين المستعربين ويسرت الحكومات العربية سبل التعلم بطرق وأساليب إن اختلفت في الوسائل ، فإنها تتفق جميعًا في الأهداف ، بل إن بعض الدول العربية ودول الخليج على وجه الخصوص قدمت ولا تزل تقدم منحًا دراسية لمحبي العربية ، وهذا شرف لهذه الشعوب ينطلق من حبها للسانها ودينها ، وإيمانًا منها بما عليها من واجب نحو خدمة لغة القرآن الكريم ، وتيسيرها لمريديها وشداتها .

ولسنا هنا في مجال تقييم الجهود في نشر العربية بقدر ما نتطلع إليه من تذليل العقبات التعليمية أمام طلاب العربية من غير الناطقين بها .

فإذا كان تعلم العربية وخاصة نحوها وصرفها ليس يسيراً على العرب أنفسهم ، فما الموقف عند غيرهم من الطلاب .

لقد عني المهتمون بتدريس العربية لغير أبنائها بأمور أساسية هي : [انظر " علي محمود فريد ، إعداد معلم اللغة العربية ، بحث مقدم إلى المؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب بالخرطوم الخاص بتطوير تعليم اللغة العربية ، فبراير ، ١٩٧٦ ، ص ٤١٧ ، ٤٣١ ، وانظر سالمان سليم سالمان ، إشكاليات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها - المنهج والتطبيق مقدم إلى دورة تدريب الخبراء على إعداد مناهج اللغة العربية لغير الناطقين بها - الشارقة ، اكتوبر ، ١٩٩٧م] :

١ - ما يتعلق بالمعلم : فاشترطوا أن يتصف بالمهارة التي تمكنه من توصيل المعرفة :

- أن يتصف بالتمكن من اللغة العربية وقواعداها .
- وأن يكون قادراً على تبسيط اللغة أمام المتلقي .
- ماهراً في عرض المادة المدروسة .
- صبوراً ، ذا وجه باش ، بعيداً عن التعصب والشدة في التعامل .
- ملمًا بتطلعات الدارسين مدركًا لاهتماماتهم .
- قادراً على إقامة الحوار مع تلاميذه .

كما أن المتلقي ينبغي أن يكون :

- مهيئًا نفسيًا وثقافيًا لتعلم العربية لغة ثانية .
- جاداً في طلب العربية ، ممارسًا لها قراءة وكتابة واستعمالاً .

كما لا يُغفل جانب المنهاج وملاءمته لمستويات الدارسين ، ملبيًا لاحتياجاتهم ، متدرجًا في علومة مراعيًا إكسابهم بعض خصوصيات العربية المتعلقة بأصواتها ومخارج حروفها ، وإعرابها ، واختلاف لهجاتها الحديثة والقديمة وخصوصية الفصحى التي بها يسهل التفاهم بين المشرق والمغرب .

إن نظرة سريعة في تاريخ أمتنا العربية الإسلامية ترينا كيف استطاع أسلافنا نشر دين الإسلام في الشرق والغرب ، ومع انتشاره انتشرت اللغة العربية ، وأصبحت اللسان الفصيح لدول ما وراء النهر ، كما أصبحت وسيلة الكتابة الأدبية والتاريخية لشعوب المسلمين في زمن قياسي محدود . لقد استطاعت العربية التعايش مع لغات الشعوب ، والهيمنة عليها عندما أخلص لها أهلها ، ومنحوها القوة والتأثير في الفكر الحضاري المؤثر فانجذب إليها أبناء الأمم الإسلامية في الشرق والغرب ، وكتبوا بها آدابهم ، وسجلوا بها آثارهم في الفنون المختلفة ، ولا أدل على ذلك مما كتب منها من علوم كالطب والفلك والرياضيات والأدب والتاريخ وفنون القول الأخرى .

إن من المؤسف حقًا أن تتراجع العربية عن الصدارة ، وتتهم بالعجز أمام المصطلحات العلمية الحديثة ، وفي الوقت نفسه نرى أممًا أقل شأن من أمتنا العربية الإسلامية " قد مارست منذ زمن بعيد تدريس العلوم في جامعاتها بلغاتها المحلية ، حفاظًا على اعتباراتها القومية أساسًا ، فاللغة التركية ، أو الفارسية ، أو العبرية ، لا تمثل في باب اللغات الحضارية وزناً يضارع وزن اللغة العربية ، ومع ذلك يصر أصحابها على خوض التجربة ، ويكافحون لإثراء لغاتهم بشتى الوسائل العلمية ، ويتكون لهم على طول السنين معجم حديث غني لا يقل أهمية عن المعجم الأصلي للغة ، ونخص بالذكر ما يجري داخل الجامعة العبرية من اعتماد أساسي على العربية

في تنمية المعجم العبري فيما يشبه عملية نقل الدم لمريض بالأنيميا ... »
[عبدالصبور شاهين ، المستقبل الحضاري للغة العربية ، ضمن البحوث المقدمة للمؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب الخاص بتطوير تعليم اللغة العربية - الخرطوم ، فبراير ١٩٧٦م ، ص ٦٢٥] .

صحيح أن العمل دؤوب مستمر في مجال نشر العربية ، وإن جهوداً كالتي يبذلها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط ، أو مجامع اللغة العربية المنتشرة في الحواضر العربية ، أو المنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة (ايسيسكو) أو المعاهد والجامعات المنتشرة في البلاد العربية ، كل هذه الجهود وأمثالها ، لا ينبغي أن يتجاهلها أحد ، إلا أن الوقوف عند هذا القدر من السعي غير كاف ، فالشعوب الإسلامية في وسط آسيا وأفريقيا وفي شرق أوروبا متعطشه لدراسة العربية والدين الإسلامي والحضارة الإسلامية ، والعرب إن لم يسعوا إليها ويمدوا يد العون لها ، كان غيرهم من المبشرين والمنصرين أقرب للهيمنة على هذه الشعوب ، وإخراجها من دينها ، وإبعادها عن العربية التي تتطلع إليها .

إن بعثات التنصير المدعومة بالمال والفكر الموجه المدروس ، ينبغي أن تواجه ببعثات الحق واليقين لنشر لغة القرآن ، فتنقذ أقوامًا بعدت بهم ثقافات الشعوب المسيطرة عن نبع الإسلام الصافي ، وأقصاهم الجهل المفروض عليهم حقباً زمينة عن إقامة حروف القرآن ، ومن أجل ذلك فإن على أمتنا الحاضرة وأجيالنا المستقبلية واجبًا عظيمًا نحو هذه اللغة التي هي وعاء دين الإسلام الحنيف ، فلنكن أهلاً لحمل هذه الأمانة فإن الله سائلنا يوم القيامة عن ذلك :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

والله من وراء القصد ، والحمد لله أولاً وأخيراً .

مصادر البحث

١ - **ابن جني ،أبوالفتح عثمان :**

الخصائص ، حققه محمد على النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، بلا تاريخ .

٢ - **خليفة ، عبدالكريم :**

تيسير تعليم العربية في التراث ، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الجزء الثامن والخمسون ، شعبان ١٤٠٦هـ / مايو ١٩٨٦م .

٣ - **سالمان سليم سالمان :**

إشكاليات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، المنهج والتطبيق ، بحث مقدم إلى دورة تدريب الخبراء على إعداد مناهج اللغة العربية لغير الناطقين بها ، الشارقة ، أكتوبر ١٩٩٧م .

٤ - **السيد ، عبدالرحمن :**

النحو العرب بين التطوير والتيسير ، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الجزء السبعون ، القعدة ١٤١٢هـ / مايو ١٩٩٢م .

٥ - **شاهين ، عبدالصبور :**

المستقبل الحضاري للغة العربية ، بحث مقدم للمؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب بالخرطوم ، الخاص بتطوير اللغة العربية ، فبراير ١٩٧٦م .

٦ - **ضيف ، شوقي :**

تجديد النحو ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٨٢م .

٧ - **طعيمة ، رشدي أحمد :**

أسس تحليل وتقديم كتب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، مسقط ، عمان ،

٨ - فريد ، علي محمود :

إعداد معلم اللغة العربية ، بحث مقدم إلى المؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب بالخرطوم ، الخاص بتطوير تعليم اللغة العربية ، فبراير ١٩٧٦م .

٩ - أبوالقاسم ، سعد الله :

المستشرقون الفرنسيون وتعليم اللغة العربية للأوروبيين في الجزائر (١٨٣٠ - ١٩١٤م) ، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الجزء الرابع والستون ، رمضان ، ١٤٠٩هـ / مايو ١٩٨٩م .

١٠ - القرطبي ، ابن مضاء :

الردّ على النحاة ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م .

١١ - القوزي ، عوض بن حمد :

تبسيط اللغة العربية الضَّعف والإصلاح - بحث مقدم إلى المؤتمر الرابع لجمعية لسان العرب ، القاهرة ، نوفمبر ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

١٢ - الهليس ، يوسف :

تطوير تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، بحث مقدم للمؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب بالخرطوم ، الخاص بتطوير اللغة العربية ، فبراير ، ١٩٧٦م .